إرهاصات المدارس المعجمية العربية وتطورها

The harbingers of Arabic lexical schools and their development

أ.م. د محمد عبد ذياب [*1]

[1] جامعة الفلوجة كلية العلوم الاسلامية قسم اللغة العربية ، العراق

تاريخ الاستلام: 2021/02/17 تاريخ القبول: 2021/07/04 تاريخ النشر: 2021/07/28

الملخص:

علم المعجمية العربية علم مهم من علوم العربية المختلفة، وهو يمثّل أهمّ مصادرها وهو بجانب ذلك علم جليل خطير يجمع أصنافاً من فروع اللغة والنحو والتصريف وغيرها، وكان العرب من الأمم السابقة إلى تأسيس أركان ثابتة لهذا العلم لا سيّما بعد نزول القرآن الكريم، فبدأت رحلة المعجمية العربية منذ القرن الثاني الهجري وما زالت مستمرة، فقد بدأ الخليل الرحلة بمعجم (العين) الذي دارت حوله الشكوك، وألّف العرب بعد (العين) معجمات من أنفس كتب التراث العربي الذي ورثناه فـ(الجمهرة) و(المجمل) و(المقاييس) و(الصحاح) و(العباب) و(أساس البلاغة) و(لسان العرب) و(القاموس المحيط) و(تاج العروس) وغيرها، كلّها معجمات كوّنت مدارس معجمية أو ما يشبه المدارس، يحقّ لنا العرب أن نفخر بها، وندرسها بعناية؛ لأنّ فيها من الكنوز ما لا يعلمه إلا الله والراسخون في العلم.

الكلمات المفتاحية: إرهاصات؛ مدارس؛ معجم عربي

Abstract :

The science of Arabic lexicography is an important science of the various sciences of Arabic, and it represents its most important source, and besides that, it is a noble and dangerous science that combines varieties of the branches of language, grammar, conjugation and others. Arabic since the second century AH and is still continuing, as Hebron began the journey with the dictionary (Al-Ain), around which doubts revolved, and he composed the Arabs After (Al-Ain), the most valuable Arabic heritage books that we inherited are (Al-Jamah), (Al-Majmal), (Al-Maqayyat), (Al-Sahih), (Al-Abab), (Al-Balaghah), (Lisan Al-Arab), (Al-Qamos Al-Muheet) and (Taj The bride) and others, all of them are lexicons that formed lexical schools or similar schools, which Arabs have the right to be proud of, and we study them carefully. Because there are treasures in them that only God knows and who are firm in knowledge.

Key Words: Suggestions; Schools; Arabic dictionary

[*] **المؤلف المرسل:** mhashimy67@gmail.com

المقدمة:

هيأ الله سبحانه وتعالى للغة العرب ما لم يهيأ لأيّة لغة أخرى على وجه الأرض من القداسة والحفظ والرعاية، وأخذها بأسباب التفوق والبلاغة والبروز واهتمام أبنائها لها، وقد توج ذلك بإنزال أقدس كتاب سماوي، وهو القرآن الكريم الذي شرّف اللغة العربية بكونه ناطقاً بها، فقال جلّ ثناؤه:{إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ – يوسف2} وقوله:{كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ – فصلت 3} وقوله :{وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ – النحل 103}.

إنّ هذا القرآن نزل شاهداً على ثراء هذه اللغة وعلو كعبها بين اللغات، وهذا فيما يبدو سبب من أسباب السعي الدائب المتواصل من أعداء العرب والإسلام في محاولة الطعن والتجريح والشك في هذه اللغة، وليس ذلك بالأمر الخطير، بل الأخطر من ذلك أنّ الذين تولّوا كبر هذه المحاولات والذين ورثوهم من ورائهم إنّما هم رجال من أبناء جلدتنا وينطقون بلغتنا[1].

إذن فالعربية كانت على موعد مع هذا التشريف بنزول القرآن الكريم؛ ممّا جعل الدراسات العديدة تقوم حول هذا الكتاب المقدّس، حتّى غدا الواحة التي تجمّع حولها طالبو الماء والكلأ من لغة العرب، فلم تقمْ دراسة في العصور الإسلامية الأولى لا تمس القرآن من قريب أو بعيد، وقد أصبح معلوماً أنّه لولا القرآن الكريم لما أصبحت أمّة العرب من أكثر أمم الأرض تأليفاً.

ولقد درس الكثير من الباحثين واللغويين مختلف الجوانب اللغوية من ناحية المادة والمحتوى والمضمون للمصادر الأولى للغتهم، أو ما أصبح يطلق عليها فيما بعد بالمعجمات العربية، التي هي الآن البحر الزخّار لكل من يتعامل مع لغة العرب، ولقد تتابعت هذه الدراسات وحقّق بعضها نجاحاً بارزاً وأصبح عالم المعجمية عالماً رحباً واسعاً.

وكان للعرب جولات في ميدان المعجمية العربية، بجانب العلوم الأخرى كالنحو والتصريف والدلالة والبيان والصوت وغيرها، فهم من الأمم الأولى التي أرست الأسس والمبادئ المعجمية، وصنّفوا في ذلك كثيراً من مصادر اللّغة الأولى وهي المعجمات العربية وفق مناهج متعددة آتت أكلها.

وممّا أعان على ذلك عامل الزمن والوقت، فالدراسات ينبغي أن يتوافر لها الوقت الكافي لتختمر وتنتج؛ فإنّ النتائج الباهرة التي انتهى إليها علماء المعجمية لم تكن في حقيقة الأمر إلا آثاراً لجهود طويلة بطيئة وشاقة ذهبت فيها القوى وأنفقت فيها الأعوام بل القرون حتى استوت على سوقها، وهو في رأينا الشيء الذي فعله المعجميون العرب لتأنيهم في ذلك منذ إرهاصات ظهورها حتّى تبلورها بالصورة التي هي عليها الآن كـ(العين) و(الصحاح) و(اللسان).

الفصل الأول: مراحل جمع اللغة وأوائل المعجمات:

لقد كان أثر القرآن الكريم واضحاً على أصحاب المعجمات العربية، وفي مرحلة متقدّمة والتي كانت عبارة عن مؤلفات لشرح الألفاظ، حتّى نصل إلى (الخليل الفراهيدي) (175ه) ومعجمه (العين) الذي سار على نهج معجميّ

قريب مما نعهده الآن على الرغم من بعض الشكوك التي تحوم حول نسبته بما لسنا هنا في مجال الخوض فيه، ولكنّه صاحب هذا المعجم على الأرجح من أقوال اللغويين[2].

في بداية جمع اللغة من البادية أو المرحلة الأولى هي جمع الكلمات عشوائياً[3] فكلمة عن السيف وأخرى عن الخيل وثالثة عن الإنسان وهلمّ جراً، ويبدأ في التدوين غير المنظّم، ثمّ تطوّر عمله قليلاً فبدأ يجمع الألفاظ ذات الموضوع المحدّد؛ لأنّهم خَبِروا صعوبة عملهم العشوائي الآنف الذكر فظهر عملهم في كتب تخصصّية نوعاً ما، فكتاب عن الإبل وكتاب عن السيف وهكذا[4] ثم تطوّر العمل بظهور المعجمات العربية المعروفة كـــ(العين) للخليل و(التهذيب) للأزهري وغير ذلك.

ويمكن القول إنّ الكتب التي لها علاقة بالقرآن الكريم والحديث النبوي الشريف كانت بجانب هذه من أوائل مؤلفات هذه المرحلة، فظهرت الرسائل اللغوية في موضوعات غريب القرآن وغريب الحديث وغريب الفقه واللغات والعامّي والمعـــرّب ولحن العامّة والهمز والحيوان وكتب النوادر وكتب خلق الإنسان وكتب البلدان والمواضع، وأيضاً كتب الإفراد والتثنية والجمع وغير ذلك[5].

ويعزى إلى (ابن عـــبّاس) (68هـــ) أوّل كتاب في غريب القرآن، ثمّ تلاه في ذلك (أبو سعيد البكري) (141هـــ) في هذا النوع من التآليف[6] أمّا نظيره غريب الحديث فقد (عزا أكثر الباحثين الكتاب الأوّل فيه إلى أبي عبيدة معمر بن المثنى (210هـــ) تبعاً لابن الأثير)[7] وذهب هذا الأخير إلى أنّ (النضـــر بن شميل) (203هـــ) قد جاء بعد (أبي عبيدة) في التأليف.

وبعد ظهور عدّة معجمات لغوية كـــ(العين) و(التهذيب) جمع (الهروي) (410هـــ) بين الحسنيين فألّف كتابه (الغريبين) وألّف (الأزهري) (370هـــ) كتاب (الزاهر في غرائب ألفاظ الإمام الشافعي) ولا يخفى فإنّ أساس معجم (المصباح المنير) للفيومي (770هـــ) هو شرح الألفاظ الفقهية.

وفي لغات القرآن وردت رسالة منسوبة لابن عبّاس رضي الله عنه[8] ثمّ توالت التأليفات بعده فألّف (الفـــرّاء) (207هـــ) و(الأصمعي) (215هـــ) و(السيوطي) (911هـــ) فيما بعد ولا ينسى كتاب (الجيم)[9] لأبي عمرو الشيـــباني (206هـــ).

أمّا الموضوعات اللغوية المنفردة ككتب الإفراد والتثنية والجمع فقد نسب إلى (الرؤاســـي) الكوفي وأحد معاصـــري الخليل، ثمّ ألّف الفرّاء بعده، وفي الأبنية وصل إلينا اسم كتاب كانت وجهته فيما يبدو إلى المصادر، وهو للغوي معروف هو (الكسائي) (189هـــ) وألّف بعضهم في الأفعال والأسماء وبقية الأبنية، وهذه المؤلفات وغيرها تمثل بدايات المعجمية العربية وأوّل عهدها حتّى الوصول إلى المعجمات المتقدمة على شكلها المعروف كـــ(لسان العرب) و(القاموس المحيط) و(تاج العروس) وغيرها.

المبحث الاول: معجمات اللغة:

لا يذهب الظنّ إلى أنّ ما سبق ذكره من الكتب والمؤلفات التي ذكرنا طرفاً منها، ونظائرها التي لم تذكر أنّها لا تعدّ ضمن المعجمات ... لا ! فالحقّ أنّها معجمات عامة كـــلٌ بحسب الموضوع الذي تعالجه هذه الكتب، وهي التي قيل عنها إنّها معجمات المعاني.

لقد وضع العلماء واللـــغويون الأحكام والقواعد لما يمكن أن يدخل تحت باب معجمات اللغة أو معجمات الألـــفاظ، وهو أن تكون الكلمات مرتبة على نمط خاص بشكل يسهل على من أراد أن يعرف معنى كلمة مـــا في المعجم، وقد رأينا في كتب الموضوعات، أو لنقل معجمات الموضوعات كيف يصعب على الباحث أن يبلغ مراده ومبلغه في موضع معـــين من هـــذه المصادر، على أنّنا نلحظ التدرج في التسهيل الذي صاحب المراحل المعجمية الأولى والثانية، وهذا يستـــتبع بطبيعة الحال التدرج في التفـــكير، فالمرحلة الأولى كانت أصعب من الثانية وأكثر بدائية، والثانية أصعب من الثالثة هذه التي بين أيدينا.

إذن نحن بإزاء المرحلة المعجمية الثالثة المتمثلة بظهور معجمات اللغة بصورة منظمة تنظيماً جـــيداً؛ لأنّ من أهداف المعجميين واللغويين المهمة في تقعيد القواعد المعجمية التيسير والسهولة للباحث عن كلام العرب أو جزء منه؛ فكانت المرحلة الأولى، وكان (الفراهيدي) قد (وضع أو الأرجح أنّه أوحى بطريقـــة وضع أول معجم شامل لمفردات العـــربية وهو المعروف بالعين)[10] .

ثمّ كان دأب المعجميين هو العمل على تسهيل معجماتهم ومحاولة جذب الـــقارىء إليها، معتمدين في ذلك على عقـــلياتهم ومكناتهم اللغوية ومحاولة تلافي النقـــود التي وجهت إلى المعجـــمات السابقة لهم ومحاولة تحليلها والتخلص منها، فضلاً عن الاعتـــماد علـــى ما جاء فـــي موادها؛ ومن هذا الاعتبار فحـــري بنا أن نشـــير إلى فضل السبق لصاحب معجم (العين) وقولنا صاحب معجم (العين) ليس من باب التجاهل أو الجهل به؛ بل لأنّنا لم نفصّل القـــول في نسبته هل هو للخليل أو لغـــيره؛ ولأنّ مدار الأمر هنا منصب على فضل السبق وليس تحقـــيق نسبته كما سيتم التطرق إليه إيجازاً بُعيد الذي نحن فيه؛ لذلـــك نقول إنّه صاحب فضل السبق، وما بعده من المعجميين هم عالة عليه، فالفضل للسابق وإنْ أبدع اللاحق.

المبحث الثاني: المعجم في اللغة والاصطلاح:

هذا الحديث يعود بنا إلى تعريف المعجم؛ لأنّه مدخل مهمّ إلى قواعد المعجم العربي وأوليّة تدوينه، هذه القواعد التي ارتضاها أهل اللغة المعجميون العرب، فالمعجم مشتق من (أعجم) وقد وردت مشتقات هذه اللفظة في أربع آيات في القرآن الكريم منها قوله تعالى:{لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَـــذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ – النحل 103} وهو في اللغة يرجع الى مادة (ع ج م) ومن لا يفصح أو غير العربي وهم العجم[11] أما في الاصطلاح فقد (عرّف اللغويون المعجم بأنه كتاب يضم بين دفتيه مفردات لغة ما ومعانيها واستعمالاتها في التراكيب المختلفة، وكيفية نطقها، وكتابتها، مع ترتيب هذه المفردات بصورة من صور الترتيب التي غالبًا ما تكون الترتيب الهجائي)[12] فهـــو إذن ترتيب كتاب على الحروف العربية لشرح معاني الألـــفاظ وما يتعلق بها بحسب ما يرتأيه صاحب المعجم إسهاباً أو

اختصاراً، وهـــو آتٍ من عبارة حـــروف المعجم التي أطلقت على حروف الهجاء العربية، ومعناها (الحروف المقطعة التي يختص أكثرها بالنقط من بين سائر حروف الاسم، ومعناه حروف الخط المعجم)[13].

هذا الاصطلاح انتقل إلى ميدان اللغة من الميادين الأخرى، فقد نسب إلى حبيش كتاب (الأغاني على حروف المعجم) ونسب لبزرج بن محمد العروضي كتاب (معاني العروض على حروف المعجم)[14].

هذا الاصطلاح أو الاسم سار مع الكتب تلك منذ بداية التدوين في هذا المجال إلى القرن الثامن أو التاسع حينما أطلق الفيروزآبادي (817هـــ) الاسم الثاني الذي أصبح مرادفاً لاصطلاح المعجم وهو القاموس، أطلقه الفيروزآبادي على معجمه وسماه (القاموس المحيط) ومعناه البحر[15] فهو أراد أن يكون معجمه بحراً محيطاً في اللغة، ثمّ قدّر لقاموس الفيروزآبادي أن يشتهر ويشيع؛ فتشيع معه كلمة (القاموس).

ويرجع معظم الباحثين سبب شيوعها أيضاً إلى الإشكال الصرفي في جمع كلمة (المعجم) لأنّ الخلاف ظاهر بين في جمع المعجم على معاجم؛ فقد خطّأ مصطفى جواد هذا الجمع، وقال إنّ الصحيح أن يجمع (معجم) على (معجمات) أمّا إذا جمع جمع تكسير فيكون على (معاجـــيم)[16] في حين أنّه لا إشكال في جمع (القاموس) على (قواميس) التي شاعت على الألسنة وتداولها الناس من دون خلاف و(اشتهر هذا الاستعمال حتى أصبح مرادفاً لكلمة معجم لغوي أطـــلق على جميع المعاجم اللغوية الأخرى المتـــقدمة والمتأخرة)[17].

وسواء أكانت التسمية معجماً أم قاموساً فهذه لا تؤثر فيما نحن بصدده؛ لذلك لم يلقَ هذا الاختلاف بالاً كبيراً؛ لأنّ المهم هو المسمى لا الاسم، وهو الذي تصدى له الباحثون اللغويون بالدرس والاستقصاء قديماً وحديثاً.

المبحث الثالث: عين المدارس المعجمية (العين):

أوّل أنواع المعجمات اللغوية المرتبة وفق نظام معين وترتيب خاص هو كتاب (العين) الذي يعدّ تتويجاً للدراسات والكتب التي سبقته في مجال جمع الألفاظ وشرحها والتي أشرنا إلى أوائلها سابقاً، وكتاب (العين) هذا تعرض لمناقشات جدلية واسعة تقوم على حقّ وعلى غير حقّ، وأكثرها يقوم على الاختلاف في نسبته إلى الخليل الفراهيدي أو عدم نسبته إليه، وهذه المناقشات الجدلية تظهر لنا ـــمدى أهمية هذا الكتاب في عالم المعجمية العربية إلى الحدّ الذي كوّن مدرسة معجمية قائمة برأسها دعيت مدرسة العين والتي نعدّها عين المدارس والمعجمات التي جاءت بعده، واستقت من العين ضروباً من العلوم المختلفة والمنهج أيضاً.

واختلف في هذه النسبة المتقدمون، وناقش ذلك المتأخرون فبين مثبت أنّه للخليل وبين منكر له تشتت الآراء؛ ولأنّ هذا البحث ليس مظنّة لحشد آراء هؤلاء وهؤلاء وأولئك ومناقشتها إجمالاً وتفصيلاً فإنّنا نكتفي بذكر أهمّ من قال فيه رأياً، فطائفة تنكر أن يكون العين للخليل، ويقف على رأس هذه الطائفة النضر بن شميل (204هـــ) وطائفة تثبت أنّ العين للخليل وأشهرهم المبرّد (285هـــ) وابن فارس (395هـــ) ذكر ذلك في مقدمة كتابه مقاييس اللغة[18].

أمّا الطائفة الـــثالثة فهي بين الإنـــكار والإثـــبات، ومن هؤلاء ثـــعلب (129هـــ) الذي قال إنّ الخليل رسمه و لم يحشّه وإنّ التحشية ظهرت بعده، لا سيّما ظهور أسماء لغويين ونحويين متأخرين عنه، والمرجّح في ذلك أنّها بفعل

النسّاخين الذين نسخوا الكتاب مع التعليقات والحواشي والهوامش من أولئك على نسخ الكتاب ثم نُسخ الكتاب بحواشيه على أنّها من الكتاب ومعها أسماء أصحابها فاختلط ما هو أصيل بما هو دخيل حتى وصل إلينا وإلى غيرنا على هذه الصورة المثيرة للشك، ويبدو أنّ هذا الرأي هو الأقرب إلى المعقول والأبعد عن التطرّف لا سيّما رفض نسبة الكتاب البتّة كما صرّح بذلك الأب أنستاس الكرملي وقال إنّه لليث بن سيّار[19].

إنّ هذا الرأي الذي ذكرناه لا يمثّل إلّا جانباً من آراء اللغويين واختلافهم في نسبة الكتاب للخليل أو لغيره، وقد فصّل القول في ذلك كثيرون وناقش بعضهم الآراء[20].

والحقّ فإنّ الباحثين ما كان لهم أن يقوموا بذلك لولا الأهمية البالغة لهذا الكتاب ذلك أنّه يمثّل الأساس الذي استندت أليه المعجمات اللغوية فيما بعد، لكنّه كما يقول يوسف العشّ:(ظلّ منبوذاً محسوداً يساعد على انتشار العربية دون أن يظهر وإذا بالمعاجم تنمو وإذا باللغة العربية تضبط ضبطاً ما كان ليتهيأ لها لولا الخليل بن أحمد)[21].

وعلى الرغم من كلّ الآراء المتضاربة التي يحاول المحدّثون ردّها إلى الرأي الذي ينجو من كل اعتراض وجيه وهو الإقرار بأنّ الخطّة والمنهج للخليل وجزء من الكتاب[22] فإنّ الذي يلوح لنا أنّ هؤلاء في قرارة أنفسهم يريدون ردّ (العين) للخليل صراحة غير أنّ ما يثلب ذلك هي تلك الآراء والاعتراضات التي أشرنا إلى طرف منها، وهم يفعلون ـــــ كما نفعل نحن أيضاً ـــــ بالقول: إنّ (العين) للخليل إمّا تجوّزاً أو تغليباً، فالباحث المبتدئ منذ أن يلج ميدان اللغة يعلم جيداً أنّ الخليل بن أحمد هو مؤلف (العين) بعيداً عن تلكم الآراء والاعتراضات والشكوك والتي يحمل بعضها من الأدلة أقواها، وعلى ذلك يمكن القول في أوّل مصادر الدراسة اللغوية وأسبقها أنّه للخليل بعيداً عن كلّ ما قيل ويقال، وبعيداً عن التفاصيل الجزئية التي تحمل التخليط والاضطراب ممّا ولّد مشكلة كبيرة في عالم اللغة والمعجمات ربّما توازي مشكلة كتاب سيبويه (180هـ) فعلى الرغم من كل الاعتراضات التي تطرح من آن لآخر حول سيبويه وكتابه، ونسبة هذا الكتاب له وهي اعتراضات تبدو مقنعة أحياناً لكنّ ذلك لم يصل إلى الشك في نسبة الكتاب إلى سيبويه فهو ما زال له بكل قوة تغليباً أو ترجيحاً، وربّما تظهر لنا قوادم الأيام خلاف ذلك بالأدلة والبراهين التي لا يعتريها الشكّ ولا يشوبها الضعف.

لقد أثّر (العين) بصفته المصدر الأوّل والمعجم العربي الأوّل في جميع المعجمات التي تلته، وكوّن مدرسة تندرج تحتها معجمات كثيرة، منها (البارع) للقالي (356هـ) و(تهذيب اللغة) للأزهري (370هـ) و(المحكم) لابن سيده (458هـ) و(المحيط) للصاحب بن عباد (385هـ) فهذه (تأثرت جميعها بخطته...[و] التزمت بعض المعاجم منهجه بحذافيره مع بعض إصلاحات طفيفة في التفاصيل والجزئيات)[23].

والرأي الأكيد أنّ معجم العين الذي هو من أوائل مصادر الدراسة اللغوية، بل هو الأوّل مثلما أقرّ ذلك اللغويون ويجب أن ينال الرتب العليا؛ لأنّه كان سابقاً، وجاء بنظام وترتيب رائعين أطراه المتقدمون والمتأخرون، واتخذوه مصدراً مهمّاً من مصادرهم يعودون إليه دائماً، وما شدّة الاختلاف فيه إلّا تأكيد آخر على أهميته على الرغم ممّا لاقاه من الصعاب وسوء الحظّ ما لم تلقه المؤلفات العربية الأخرى كما يقول عبد الله درويش في مقدمة كتابه[24] وقد يبدو هذا الأمر طبيعياً لكونه المصدر الأوّل؛ فأوائل الأمور صعابها.

لكن يبقى (العين) الحلقة الأولى والمهمّة من حلقات المعجمية العربية التي ترسّخت على يد أستاذها الأوّل الخليل بن أحمد الفراهيدي وأنّ (اللغة العربية مدينة لهما ما شاء الله أن تعيش وستحيا طويلاً)[25] وقوله (لهما) يقصد الخليل واللّيث والكلام ليوسف العشّ؛ لأنّ الرأي عنده والذي ينجو من كل اعتراض وجيه هو قول الطائفة التي ترى أنّ الخليل وضع المنهج والخطّة، وأنّ اللّيث هو الذي حشّاه.

الفصل الثاني: نظرة في المدارس المعجمية بعد العين:

على الرغم من تفاوت الآماد بين المعجمات العربية فبين (العين) و(تاج العروس) مثلاً أكثر من عشرة قرون إلّا أنّ ذلك لم يمنع اللغويين من النظر إلى (تاج العروس) على أنّه من أهمّ المصادر اللغوية ومثله (لسان العرب) أو (القاموس المحيط) وغيرها من الكتب اللغوية المتقدمة زمناً بعد (العين) وتأسيساً على ذلك فلا بدّ من معرفة هذه المصادر التي بقيت منذ تأليفها وإلى الآن المنهل الذي استقى منه اللغويون وغيرهم كل ما يتعلق بمجال عملهم، وإذا ما جعل اللغويون والمعجميون (العين) رأس المدرسة المعجمية الأولى فقد جرى على ذلك تقسيم المدارس المعجمية التي تمثل مصادر مهمة من مصادر الدراسة اللغوية كلاً على حدة، وإنّما هذا التقسيم هو من مقتضيات الدراسة المعجمية.

المبحث الأول: المدرسة الثانية

تضم هذه المدرسة مصادر معجمية ثلاثة أحدها لابن دريد (321هـ) هو (جمهرة اللغة) واثنين لابن فارس (395هـ) هما (المجمل) و(المقاييس) فـ(من مشاهير كتب اللغة التي نسجت على منوال العين كتاب الجمهرة لأبي بكر بن دريد قال في خطبته: (قد ألّف أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد الفراهيدي رضوان الله عليه كتاب العين فأتعب من تصدى له لغايته وعنى من سما لنهايته ... وأملينا هذا الكتاب والنقص في الناس فاشٍ... وسمّيناه كتاب الجمهرة لأنّا اخترنا له الجمهور من كلام العرب وأرجأنا الوحشي والمستنكر)[26].

يلاحظ من قول ابن دريد أنّه أهمل الوحشي الغريب، واختار من كلام العرب الواضح الشائع؛ لأنّ الجمهور هو الشائع المستعمل في حين جمع الخليل الواضح والغريب، وتتميز الجمهرة بالإكثار من لغات العرب والمعّرب والدخيل أمّا صيغه فهو الثنائي وما يلحق به، والثلاثي وما يلحق به، وكذلك الرباعي والخماسي، وقد أخذت على الجمهرة مآخذ عدّة أهمّها اضطرابه الشديد في طريقة عرضه أو اضطرابه الشديد في المنهج حتّى وصف بأنّه أكثر المعجمات العربية اضطراباً[27].

أمّا معجما ابن فارس وهما (المجمل) و(المقاييس) فقد رمى من تأليف الثاني إلى هدف محدد هو معرفة المعنى الأصلي المشترك للمواد فقال في مقدمة مقاييس اللغة:(إنّ للغة العرب مقاييس صحيحة وأصولاً تتفرع منها فروع، وقد ألّف الناس في جوامع اللغة ما ألّفوا و لم يعربوا في شيء من ذلك عن مقياس من تلك المقاييس ولا أصل من تلك الأصول)[28].

أمّا (المجمل) فكان كالعين والجمهرة في انتمائه إلى جمع اللغة على طريقة المعجمات لكنّه خالف الاثنين في أنّه لم يستكثر من الألفاظ والشواهد، بل أراد أن يجمل ـــــ من اسمه ـــــ لكي يسيطر على مادته؛ لأنّه أدرك ما في الكثرة من الاضطراب.

إذن (فالجمهرة تقسّم بحسب الأبنية أولاً، ثمّ يقسّم كلّ بناء إلى الحروف أمّا المقاييس والمجمل فيقسّمان وفقاً للحروف، ثمّ يقسّم كلّ حرف إلى أبنية، والأبنية في الجمهرة كثيرة مختلطة، وعند ابن فارس قليلة محكمة والجمهرة تراعي التقاليب، وابن فارس يطرح ذلك من معجميه وابن دريد لا هدف في معجمه إلّا الجمع كبقية أصحاب المعاجم أمّا ابن فارس فله هدف خاصّ في معجميه)[29].

المبحث الثاني: المدرسة الثالثة

جاء الجوهري (400هـ) بنظام معجمي جديد وفريد أكسب هذه المدرسة ميزتها الخاصّة بما يمكن أن يطلق عليها مدرسة معجمية، فمعجماتها من أشدّ المعجمات تميّزاً ووضوحاً كمدرسة مستقلة مع التحفّظ من هذا اللفظ (المدرسة) لأنّ بعض الباحثين لا يرون فيما كان (مدرسة) إنّما هي جهود علمية، وهذا يشمل علوم اللغة ولا سيما أعمدتها كالنحو مثلاً كالمدرسة البصرية والكوفية والبغدادية والشامية والمصرية والأندلسية وهكذا.

هذا النظام المبتكر الجديد هو نظام أواخر الكلمات، أو نظام التقفية إذ اعتمد الجوهري على أواخر الكلمات لترتيب مواده، ويسمى نظام الباب والفصل إذ يعدّ الحرف الأخير بعد اطرّاح الزوائد باباً والحرف الأول فصلاً بحيث تبدأ الأبواب من الهمزة وفقاً للترتيب الألفبائي، وقد علّل بعض الباحثين هذا النظام بسبب شيوع السجع، وحاجة الأدباء للكلمات المتحدة الأواخر والنهايات بعد غلبة الأعاجم على الشعر[30].

والحقّ فإنّ هذا التعليل يندفع بالقول إنّ السجع كان موجوداً عند العرب منذ عصر ما قبل الإسلام شعراً ونثراً نوعاً ما، كما أنّه شاع في عصور الانحطاط، ثمّ إنّ الأدباء والشعراء لا يصطنعون أدبهم وشعرهم اصطناعاً حتّى أنّهم يبحثون عن الألفاظ المسجوعة في معجمات من هذا النوع لكنّه يأتي عن سجيّة وفطرة ـــــ لا سيّما الشعر ـــــ إذ ينثال انثيالاً على لسان الشاعر.

ويرى بعض الباحثين أنّ الجوهري بهذا النظام لم يكن مبدعاً في ذلك، وأنّ مراعاة قوافي الكلمات إنّما مأخوذ من كتاب التقفية للبندنيجي (284هـ) وحتّى حشو الكلمات مأخوذ من خال الجوهري نسباً وهو الفارابي (350هـ) من كتابه ديوان الأدب المفقود لدينا.

فيما يرى آخرون أنّ الجوهري قد رمي بشبهتين الأولى تتعلق بالنظام الذي قيل إنّه قد ابتكره وهي اتهامه بسرقة ذلك من البندنيجي صاحب كتاب التقفية، وهو حشد الكلمات المتحدة الأواخر من دون أي اعتبار آخر، وقد حقّقه الدكتور خليل العطية[31] ولكن يمكن القول إنّ منهجي الكتابين مختلفان لذلك قيل إنّها شبهة.

أمّا الشبهة الثانية فهي تشبه الأولى، وهي تتعلق أيضاً بنظام أواخر الكلمات، وأنّه قد (استفاد منه الجوهري ابن أخت الفارابي في صحاحـــــه، واشتهر بأنّه مبتكره وهي غلطة شائعة يجب تصحيحها)[32] والفارابي هذا هو اسحق بن إبراهيم (350هـ) الذي ألّف كتاباً وضع فيه الألفاظ المنتهية بحرف واحد معين الواحدة مع الأخرى باعتبار هذا الحرف سواء أكانت اسماً أم فعلاً أم وصفاً، وسمّى كتابه (ديوان الأدب) ويمكن القول إنّ الجوهري قد أفاد من فكرة خاله الفارابي وطورها بما نتج عن ذلك أساس مدرسة معجمية ذات نظام مبتدع سارت عليه أكبر المعجمات العربية وأصحّها كـ(الصحاح) للجوهري ـــــ الذي مرّ ذكره ـــــ و(العباب) للصاغاني (650هـ) و(لسان العرب)

لابن منظور (711هـ) و(القاموس المحيط) للفيروزآبادي (817هـ) و(تاج العروس من جواهر القاموس) للزبيدي (1205هـ).

ولقد لقيت هذه المعجمات شهرة كبيرة في تاريخ المعجمية العربية، واعتمدت على نظام الباب والفصل كما سبق غير أنّ لكلّ منها ميزات خاصّة على الرغم من انتمائها لمدرسة واحدة (إذ يلتزم الصحاح الألفاظ الصحيحة وحدها وتغلب عليه الصبغة النحوية الصرفية، وتغلب على العباب الصبغة الأدبية والعناية بالشواهد الشعرية، ويلتزم القاموس الاختصار والاستقصاء وتغلب عليه الصبغة الطبية، ويكثر من الأعلام وخاصّة أعلام المحدثين والأماكن والمصطلحات، ويغلب على اللسان والتاجّ الإسهاب والإطناب مع اقتصار الأول على المواد اللغوية تقريباً، وانفساح رقعة الثاني إلى ما ضمّه أصله القاموس وما زاده هو، فالتاجّ خليط من دوائر المعارف والمعجمات اللغوية)[33].

المبحث الثالث: المدرسة الأخيرة

إنّ الترتيب الألفبائي سار مع العرب منذ أقدم العصور لا سيّما الإسلامية، فتارة يهمل في المؤلفات، وأخرى يستعان ببعض منه، وثالثة يعاد إليه كلية غير أنّه من المؤكّد أنّ المتعلّم أوّل ما يفتح عينيه على اللغة ومبادئها فإنّه يحفظ الحروف العربية على هذا الترتيب أو نظيره الأبجدي بصورة أقلّ، وهذا ما يحصل الآن، فالترتيب الألفبائي هو الأساس، وفي المعجمات العربية لا يمكن القول بأنّ هناك مدرسة التزمت هذا الترتيب مدّة زمنية متواصلة، فالشيباني (220هـ) في الجيم قد (قسّم الكتاب إلى أبواب قصر كل واحد منها على حرف من حروف الهجاء واتبع في ترتيبها الطريقة المألوفة التي لا نزال نسير عليها اليوم)[34].

والجيم يعدّ المعجم الثاني بعد العين، ثمّ نجد بعد قرون عديدة وبعد شيوع نظام الباب والفصل نجد الزمخشري (538هـ) يسير عليه في أساس البلاغة، والفيّومي (770هـ) في المصباح المنير إذ يعتمدان على الترتيب الهجائي، ويأخذان في الاعتبار الحرف الأول والثاني والثالث، كما إنّنا واجدون بعد (تاجّ العروس) المؤلّف على نظام الباب والفصل أنّ المعجمات التي تلته لا سيّما معجمات اليسوعيين التي كانت جلّها أو معظمها مؤلفة للطلبة والتلاميذ، هذه المعجمات سارت على النظام الهجائي؛ لأنّه الأقرب إلى مدارك الطلبة واعتيادهم على هذا النظام، ومن ذلك معجم سعيد الخوري الشرتوني (أقرب الموارد في الفصيح والشوارد) وأيضاً فقد أخرج الأب لويس معلوف معجم (المنجد) عام (1908م) وألّف البستاني معجم (البستان) عام (1930م) ألّف المرحوم أحمد رضا معجم (متن اللغة) عام (1958م)[35].

وهناك معجمات أخرى غير هذه مثل (محيط المحيط) و(قطر المحيط) وغيرها الكثير ممّا لا يحدّه حصر أو تعداد في عجالتنا هذه، وعلى الرغم من أنّ هذه المدرسة تمثّل خليطاً من عدّة اتجاهات لا سيّما الحديثة منها إلّا أنّ الجامع المشترك بينها هو الترتيب السهل والمنطقي، ويبدو أنّ هذا هو السبب الذي حدا بالمعجميين على تحاشي اتباع المناهج الأخرى منذ ما بعد تاج العروس حتى الآن إذ التزموا هذا الترتيب.

إنّ ترتيب المدارس المعجمية هذا لا يعدّ قاطعاً؛ لأنّ العلماء والباحثين في مجال المعجمية العربية قد تعددت آراؤهم في تقسيم المعجمات إلى مدارس حتّى قيل إنّ كلّ معجم هو مدرسة بحدّ ذاتها، غير أنّنا واجدون أنّ أفضلها تقسيماً

أحسنها نظاماً وهو مبدع به هو تقسيم حسين نصار في كتابه (المعجم العربي) فارتأينا السير على خطوطه العامّة، ولا بدّ أن نشير هنا إلى أنّ مصطلح المدرسة قد لا ينطبق على كلّ ما قلناه، ولا سيّما وأنّ خصائص المدرسة يجب أن تحدد بصورة واضحة، والقول بوجود مدارس معجمية إنّما هو من قبيل الوصف لا التحديد، الوصف بأنّ عدداً من المعجمات تنتمي إلى فئة معينة، وقد أطلق على هذه الفئة مدرسة، وهذه ربّما تشبه القول بوجود مدارس نحوية كمدرسة البصرة والكوفة وبغداد وهلم جراّ من غير تحديد لخصائص هذه المدرسة وأسسها، والمظنون أنّ إطلاق اسم المدرسة هنا إنّما هو من باب التغليب، أو محاولة جمع الآراء تحت فئة معينة واحدة كالبصريين والكوفيين وكذلك القول بوجود مدارس معجمية.

إنّ عالم المعجمية عالم واسع من الصعب أن يحاط به، وما هذا الذي قلناه هنا إلّا تعريف مبتسر عن هذا الخضم الهائل والتراث الضخم الذي خلّفه لنا أجدادنا فغدا لنا مصدراً لغوياً ثرياً كمّاً ونوعاً، والمعجمات العربية أصبحت من أهمّ المصادر اللغوية بجانب كونها تمثل مؤلفات تتعامل مع الدلالات والمعاني وشرح الألفاظ، ولكنّها تتفاوت في ذلك تفاوتاً ملحوظاً كما سبق أن بيّنا بصورة مقتضبة.

الخاتمة :

إنّ نزول القرآن الكريم كان الدافع الرئيس لقيام الدراسات اللغوية، وكان أن مرت اللغة في جمعها بمراحل عدّة، فالمرحلة الأولى كانت جمعاً عشوائياً؛ وهذا ممّا ولّد اضطراباً في الإفادة من المادة اللغوية؛ هدت لغويي المرحلة الثانية لأن يجعلوا عملهم أكثر تنظيماً؛ فظهرت المدونات التي يمكن عدّها من معجمات المعاني ككتب غريب القرآن وغريب الحديث وخلق الإنسان والإبل وما شابه ذلك، وهي تمثل إرهاصات تأليف المعجمات على الشكل الذي عهدناه من العين إلى تاج العروس إلى يومنا هذا.

بعدها المرحلة الثالثة وهي أهمّ مرحلة، إذ تبلور منهج جامعي اللغة بظهور منهج الخليل في العين الذي يعدّ أهمّ مصدر لغوي اكتسب صفة المعجم بمعناه المعهود، وله فضل السبق على الرغم ممّا يقال بشأن نسبة الكتاب إلى الخليل، وهي بين الإثبات للخليل والرفض والإنكار، وطائفة ثالثة تقف موقفاً وسطاً بين الأمرين التي ترى أنّ المنهج للخليل وأنّ التحشية ظهرت بعده، ومع ذلك يبقى (العين) مصدراً من أهمّ المصادر اللغوية، وأنّه أثر بصفته المصدر الأوّل والمعجم العربي الأوّل في جميع المعجمات التي تلته، وهو الحلقة الأولى من حلقات المعجمية العربية .

ثمّ المدرسة الثانية وتضم جمهرة ابن دريد ومجمل ابن فارس ومقاييسه والثالثة تضم صحاح الجوهري وعباب الصاغاني ولسان العرب لابن منظور والقاموس المحيط للفيروزابادي وتاج العروس للزبيدي، وهذه الفئة أو المدرسة من أشدّ الفئات تميّزاً ووضوحاً فضلاً عن أنّها ضمّت أكابر المعجمات العربية حجماً كاللسان والتاجّ، فيما تميّزت المدرسة الأخيرة بالترتيب الألفبائي، وهو ترتيب لازم المصادر العربية منذ وقت مبكر إذ نجده عند الشيباني في الجيم لكنّه كان يهمل ثم يعاد إليه، وأكثر المعجمات الحديثة تسير وفق نظامه .

قائمة المصادر والمراجع:

1-الكتب:

- القرآن الكريم
- ابن فارس أحمد (395هـ) مقاييس اللغة تحقيق: عبد السلام هارون دار الفكر بيروت لبنان (1979م).
- ابن منظور (711هـ) لسان العرب دار صادر بيروت لبنان الطبعة الثالثة (1414هـ).
- أولمان ستيفان دور الكلمة في اللغة ترجمة: كمال محمّد بشر المطبعة العثمانية مكتبة الشباب الطبعة الثالثة (1972م).
- البكّاء محمّد عبد المطلب مصطفى جواد وجهوده اللغوية دار الشؤون الثقافية العامة بغداد العراق الطبعة الثانية (1978م).
- البندنيجي (284هـ) التقفية في اللغة تحقيق: خليل إبراهيم العطية طبع وزارة الأوقاف بغداد (1976م).
- الجوهري (393هـ) الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية تحقيق: أحمد عبد الغفور عطّار دار العلم للملايين بيروت لبنان الطبعة الرابعة (1407هـ= 1987م).
- الخطيب عدنان المعجم العربي بين الماضي والحاضر مطبعة النهضة العربية القاهرة (1967م).
- درويش عبد الله المعاجم العربية مع اعتناء خاص بمعجم العين للخليل بن أحمد الفراهيدي مطبعة الرسالة مصر (1956م).
- السعران محمود علم اللغة دار النهضة العربية بيروت لبنان.
- السيوطي (911هـ) المزهر في علوم اللغة وأنواعها تحقيق: محمّد أحمد جاد المولى ومحمّد أبي الفضل إبراهيم وعلي محمّد البجاوي دار إحياء الكتب العربية القاهرة مصر الطبعة الرابعة (1958م).
- شاكر محمود محمّد أباطيل وأسمار مطبعة المدني القاهرة الطبعة الثانية (1972م) .
- العبيدي رشيد مشكلات في التأليف اللغوي في القرن الثاني الهجري دار الجاحظ بغداد العراق (1981م).
- عمر أحمد مختار البحث اللغوي عند العرب عالم الكتب الطبعة الثامنة (2003م).
- الفيروزآبادي (817هـ) القاموس المحيط دار المعرفة بيروت لبنان.
- كحالة عمر رضا اللغة العربية وعلومها المطبعة التعاونية دمشق سوريا (1971م).

2- المجلات:

- يوسف العشّ أوليّة تدوين المعاجم العربية مجلة المجمع العلمي العربي دمشق سوريا مجلد(16) العدد(9ـــــ12) السنة (1941م)

الإحالات: .

(1) ينظر أباطيل وأسمار محمود محمّد شاكر:12

(2) ينظر علم اللغة لمحمود السعران:325

(3) ينظر علم اللغة سعران:327

(4) ينظر المستدركات على المعاجم العربية في ضوء مائتين من المستدركات الجديدة على لسان العرب وتاجّ العروس لمحمّد حسن جبل:12

(5) ينظر اللغة العربية وعلومها عمر رضا كحالة:10

(6) ينظر المعجم العربي نشأته وتطوره حسين نصّار:39/1

(7) ينظر المعجم العربي نصّار:50/1

(8) ينظر المعجم العربي نصّار:73/1

(9) ينظر المعجم العربي نصّار:78/1

(10) علم اللغة محمود السعران:325

(11) ينظر لسان العرب ابن منظور (ع ج م)

(12) البحث اللغوي عند العرب احمد مختار عمر:162

(13) الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية الجوهري (عجم)

(14) ينظر المعجم العربي نصار:13/1

(15) ينظر القاموس المحيط: (ق م س)

(16) ينظر مصطفى جواد وجهوده اللغوية البكّاء:268

(17) المعجم العربي نصّار:14/1

(18) ينظر مقاييس اللغة ابن فارس:3/1-4

(19) ينظر المعاجم العربية مع اعتناء خاصّ بمعجم العين عبد الله درويش:13 فقد نقل هذا الأخير عنوان الكتاب الذي وجده الكرملي وهو نسخة من كتاب العين وقد صرّح بأنّه لليث بن سيّار.

(20) للاطلاع على هذه الآراء ومناقشتها ينظر المعجم العربي نصّار:154/1 وينظر المعاجم العربية مع اعتناء خاصّ بمعجم العين درويش:47 فما بعدها وينظر مجلة المجمع العربي بدمشق (م16) (ع9):424-426

(21) مجلة المجمع العربي بدمشق (م16) (ع9):553

(22) ينظر مشكلات في التأليف اللغوي رشيد العبيدي:216-217

(23) المعجم العربي نصّار:271/1

(24) ينظر المعاجم العربية درويش الصفحة (ج) من المقدمة

(25) مجلة المجمع العربي بدمشق (م16) (ع9):554

(26) المزهر في علوم اللغة وأنواعها السيوطي:92/1

(27) فصّل في هذه المآخذ حسين نصّار في كتابه المعجم العربي نشأته وتطوره:396/2-399

(28) مقاييس اللغة:3/1

(29) المعجم العربي نصّار:444/2

(30) من هؤلاء حسين نصّار في كتابه المعجم العربي:176/1

(31) التقفية في اللغة للبندنيجي تحقيق الدكتور خليل إبراهيم العطية

(32) المعجم العربي نصّار:176/1

(33) المعجم العربي نصّار:651/1

(34)المعجم العربي نصّار:80/1

(35) ينظر المعجم العربي بين الماضي والحاضر عدنان الخطيب:52-53